

المقاربة التداولية لعلم البديع مقامات الزمخشري أنموذجا

*The pragmatics approach of budaiya science**maqamat of Al-Zamakhshari as a model*

عمار غوتي *

تاريخ النشر: 2022/05/01	تاريخ القبول: 2022/03/17	تاريخ الإرسال: 2022/02/01
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تهدف الدراسة إلى تغيير النظرة النمطية التقليدية التي ظلت تنظر إلى مقولات البديع مجرد أدوات للتوشية والزخرف النصي، إن التعاطي معها بتطبيق المقاربة التداولية كفيل بالكشف عن مقاصد الزمخشري من توظيف أساليب البديع في مقاماته بعيدا عن النظرة التقليدية التي تحصر وظيفته في التحسين .

وتعد مقامات الزمخشري خطابا وعظما جادا يعبر عن مقاصد عدة على رأسها المقصد التربوي التوجيهي الذي يهدف إلى التأثير في المخاطب، لذلك لجأ الزمخشري إلى توظيف أساليب البديع التقابلية، والتكرارية، والإطنابية، وغيرها من أجل تعزيز البنيات اللغوية بمستويات تحسينية و تداولية حجاجية، وهو توظيف فعال لإجراءات ذات طابع تداولي تؤدي إلى الفعل في المخاطب .

الكلمات المفتاحية: مقاربة، تداولية، تقابل، تكرار، إقناع.

Abstract:

The study aims to apply the pragmatics approach to the science of budaiya to reveal the intents of al-zamakhshari from employing the methods of budaiya away from the traditional view that restricts his function to improvement.

Maqamat al-zamakhshari is a serious preaching discourse that expresses several intents , the most important of which is the guiding educational purposes which aims to influence the addressee , There fore he resorted to employing budaiya methods contrastive, repetitive, and prolix in order to

المؤلف المرسل: عمار غوتي. ammarghaouti3@gmail.com

* جامعة 8 ماي 1945 – قالمة . ammarghaouti3@gmail.com

feed linguistic structures with improved and argumentative levels , It's the effective use of procedures of a pragmatics nature that lead to the action in the addressee.

Key words: approach, pragmatics, contrastive, repetitive, convince

*** **

1. مقدمة:

تمتاز اللغة العربية بغنى عظيم في ألفاظها ومعانيها، وزخرف أخاذ في أشكالها، وجمال في موسيقاها، وهذا ما رشحها لأن تفوق كل لغة، وتربو على كل لسان، لكن العرب الذين عشقوا الجمال حتى في الدّمن شاكلوا البديع بالدمامة، وكان أولى بالقمامة، وكانوا في أحسن الأحوال يمرون عليه مرور الكرام، لولا أن قيّض الله له لغويين رفعوا قدره، وأحلوه المرتبة التي يستحقها، فجعلوه جزءاً من كل لا يقل أهمية عن علم المعاني والبيان في تأدية المعنى. وتهدف الدراسة إلى تغيير النظرة النمطية التي ظلت ردحا من الزمن تنظر إلى أساليب البديع بوصفها وشياً لفظياً وترفا لغوياً، لكن هل يمكن أن تؤدي أكثر من ذلك؟ وما يمكن أن تضيفه للخطاب أو تضيفه عليه؟ هذا ما تطمح الدراسة إلى الإجابة عنه من خلال تسليط المقاربة التداولية على مقامات الزمخشري للكشف عن مقاصد المتكلم وغاياته من استعمالها، ورصد آثارها في المخاطب زيادة على وظيفتها التحسينية.

وقد حاول باحثون- على قلّتهم- التعاطي تداولياً مع بعض أساليب البديع، لكنهم تناولوه باحتشام ضمن بحوث أكاديمية، ولهذا أردت أن تكون لي إضافة إلى هذه المحاولات، ولكنها إضافة مركزة على الجانب التداولي.

2. تداولية البديع.

1.1. المقاربة التداولية:

المقاربة التداولية هي ذلك المنهج الذي يحلل الخطاب بالتركيز على بعده الوظيفي والتداولي والحجاجي، ويولي أهمية قصوى للشروط الخارج لغوية المتعلقة بالسياق والمقام وأحوال المتكلمين ومقاصدهم.¹

وتعد التداولية أحدث بحث أفرزه الدرس اللساني الحديث، جاءت ردّاً على غلوّ الاتجاه البنيوي والتوليدي في تنحية كل ما له صلة بالجانب الوظيفي النفعي للغة المرتبط أصلاً بها، ودرس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها بعيداً عن محيطها الاجتماعي الذي أنتجت فيه.

وكثر التجمات العربية للمصطلح الغربي (pragmatics)، إلا أن المشهور بينها هو ما اختار طه عبد الرحمن "التداولية" مشتقة من "التداول" الدالّ على النقل والدوران الدالّين في الاستخدام اللغوي والتجريبي على معنى التواصل والتفاعل، فمقتضى "التداول" إذن أن يكون القول موصولا بالفعل². وكثرت تحديداته العربية إلى درجة الاختلاف، لذلك اقترح محمود أحمد نحلة تعريفاً رآه الأقرب إلى القبول، وهو: دراسة اللغة في الاستعمال (In use) أو التواصل (In interaction)؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول (Negotiation) اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما³.

على أن التداولية لم تعد مجالاً يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام بتطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة الطبيعية من جامعة أكسفورد وهم: أوستن (Austin)، وتلميذه سورل (Searle)، وجرايس (Grice). وعندما تفحص مدونة اللسانيات التداولية تجد الدرس فيها مركّزاً على: الإشارات، والافتراض السابق، والاستلزام الحوارى، والأفعال الكلامية، والمقصدية، والسياق، والحجاج، وغيرها.

لاحظ جرايس أن أقوال الناس لا تعبر دائماً عن مقاصدهم، فقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون؛ فرأى أن يوضح الاختلاف بين ما يقال (what is said)، وما يقصد (what is meant): فما يقال هو المعنى الصريح، وما يقصد هو المعنى الضمني المستلزم، وهو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع بطريقة غير مباشرة اعتماداً على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يحتاج له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال⁴، ولكي يحكم سلامة عملية التواصل، أطرها بمبدأ التعاون، وهو مبدأ حوارى يتضمن قواعد وحكما⁵ تضمن الوضع المثالى للتواصل، ونجاح عملية الإنتاج والتأويل، وهي:

1. قاعدة الكم: اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون زيادة أو نقصان.

2. قاعدة الكيف: لا تقل إلا ما تعتقد صدقه وصحته.

3. قاعدة المناسبة: ليكن كلامك مناسباً للموضوع.

4. قاعدة الطريقة: كن واضحاً ومحدّداً، تجنب اللبس والغموض، تحرّ الترتيب، وأوجز.

لكن المتلقي كثيرا ما يخرق أحد هذه القواعد أو بعضها، وبالرغم من ذلك يظل التواصل قائما، لأن المتلقي يظل - هو بدوره - مشدودا إلى هذا المبدأ، ومعولا عليه في عملية القراءة والتأويل .

2.2. علم البديع:

حدّ المعجم العربي البديع بأنه « المحدث العجيب، والمخترع لا على مثال »⁶، وهو في الاصطلاح « العلم الذي تعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة »⁷.

ويشير البلاغيون أنّ البدايات الأولى لهذا العلم كانت في العهد العباسي على يد الشاعر مسلم بن الوليد الأنصاري (ت208 هـ)، و أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255 هـ) اللذين وضعوا بعض الصور البيانية والمحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق على أنها تفتقر إلى التحديد والتعديد⁸، لكن عبد الله بن المعتز (ت296 هـ) يعدّ صاحب أول محاولة علمية جادة في إرساء قواعد علم البديع، وأوّل من ألف فيه، حين وضع "كتاب البديع"، يقول: « وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين »⁹، والمتصفح له يجد أنه يشتمل على خمسة أبواب، يتحدث فيها عن أصول البديع الكبرى من وجهة نظره وهي: الاستعارة، والجناس، والمطابقة، ورد الأعجاز على الصدور، والمذهب الكلامي. ثم فرّعها إلى ثلاثة عشر فكان الالتفات، واعتراض كلام في كلام، والرجوع، وحسن الخروج، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف، والهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض، والكنائية، والمبالغة، وحسن التشبيه، ولزوم ما لا يلزم، وحسن الابتداء، ثم تناسلت الفروع إلى ما يربو عن مائة وخمسة وأربعين محسنا في "الكافية البديعية" لصفي الدين الحلي (ت750 هـ).

3.2. البديع من التحسين إلى التداول:

ظل كثير من النقاد يهتمون البديع أو يؤخرونه في تعاطيهم مع النصوص، ظانين أنه جانب لا يقدم، ولا يؤخر كثيرا في الحكم على جودة النص، وحسن أدائه للمعنى بكل ظلاله¹⁰، وكانوا في أحسن الأحوال يعتبرونه ثالث ثلاثة، لا يلتفت إليه إلا بعد استيفاء علمي المعاني والبيان.

وهو في الحقيقة أكثر من ذلك؛ إذ يعدّه كثير من البلاغيين كالجرجاني والعلوي خلاصة علي المعاني والبيان، ومصاص سكرهما¹¹، وأحيانا يكون الكلام أحوج إليه منهما في تأدية المعنى، خاصة إذا كان مطبوعا، وربما كان الكلام أقل إفادة وإبلاغا من دون البديعيات)) بل إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع، لدخل من عقود المعنى وإدخال الوحشة عليه¹²، فكلما كان الكلام أعذب وأحلى، كان أشد التصاقا بالأسماع واتصالا بالقلوب، وكان أدعى للتأثير في المخاطب، يقول عمر بن عبد العزيز: ((إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن، فأرده عنها، وكأني أقضم حب الرمان الحامض، لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب، فأجيبه إليها، التذاذا لما أسمع من كلامه))¹³.

ونظر كثير من الباحثين المعاصرين إلى البديع نظرة موضوعية، ورأوا ((أن المحسنات البديعية ليست أمورا تابعة للمعاني والبيان، ولا ثانوية يسيرة الأهمية؛ بل هي وجوه توجد وحدها))¹⁴، فجعلوه نداء لأخويه، وربما أحلوه المقدمة، لأثره البالغ في المتلقي، فإذا كان الكلام حسن الجوهر فإنه يحتاج بعد ذلك إلى زينة ورونق، ولن يجده الأديب إلا في البديع، فالمعنى المعتبر عند البيانين كأنه روح، وطرق البيان كالجسم له، وأشكال البديع كأنواع الحلي¹⁵.

ولا يتوقف دور البديع عند الوظيفة الشكلية، بل يتعدّاه إلى الدور الحجاجي، فيهدف إلى الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد، وهو مليء بالصور والإمكانات التي تثبت أن الحجاج من وظائفه الرئيسية، وليس وجودها على سبيل الصنعة¹⁶، وليس المقصود بهذا طبعا كل ما ذكره علماء البديع من محسنات، وإنما المقصود البديع الذي يأتي موضعه؛ ليقوم بدوره في أداء المعنى، ويحقق غرضا تواصليا، ويؤدي وظيفة إقناعية، ((ومن هنا يتبين أن الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية، ولإفادة أبعاد تداولية))¹⁷، كما ينظر إلى البديع تداوليا بما يحدثه من استمالة أو إقناع للمخاطب ((وإنّ محسّنا لهو حجاجي إذا كان استعماله وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر يبدو معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة))¹⁸، وربط بعض الباحثين المحدثين مباحث البديع بالمقام، فسّمّوه مقام تحسين الكلام، فتكون ذات دلالة في مقام، وزخرفا

مضافا فقط في مقام آخر، وهي على الوجهين لا بد من استعمالها في مقام تحسين الكلام، لأن حاجته إلى الحلاوة و الطلاوة ملحّة، وهذا يعني أن علم البديع يراعى مقتضى حال المخاطب من وجهة نظر ما يأتي:

الأولى: التكوين النفسي للمخاطب وحسّه الجمالي؛ لذلك ينظم الكلام على ما يوافق تفاعل المخاطب مع الإيقاع والموسيقى اللذين توفرهما المقولات البلاغية البديعية.

الثانية: أن يخاطب المتلقين الأذكياء الذين يمكن مخاطبتهم بالتلميح أو بالرموز الخفية، فيجعلهم شركاء فاعلين في إنتاج المعنى بالاعتماد على مبدأ التعاون الذي يضمن الوضع المثالي للتواصل¹⁹.

كما لا يخفى أثر الموسيقى المتولدة عن المحسنات اللفظية والمعنوية في المتلقي إذ)) يمكن اعتبارها رافدا من روافد الحجاج من جهة استيلائها على النفوس، وامتلاكها للأسماع، وما كان أملك للسمع، كان أفعل باللب والنفوس²⁰، وتكمن أهمية الوسائل البلاغية فيما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، فإذا انضافت تلك الجمالية إلى حجج متنوعة وعلاقات حجاجية تربط بدقة أجزاء الكلام، وتصل بين أقسامه أمكن للمتكلم تحقيق غايته من الخطاب أي قيادة المتلقي إلى فكرة أو رأي، ومن ثم توجيه سلوكه الوجهة التي يريد لها، أي: إن الحجاج لا غنى له عن الجمال الذي يرفد العملية الإقناعية، ويسر على المتكلم ما يرومه من نفاذ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعورية، والفعل فيها²¹.

وفي البديع المعنوي مباحث كثيرة يؤدي توظيفها في النص إلى توضيح معانيه، وشحذ ذهن المخاطب، وتحريك مشاعره، وتحفيزه إلى المشاركة في إنتاجه بالاعتماد على المبادئ الحوارية، وذكاء المتلقي وملابسات الكلام.

3. تداولية البديع في مقامات الزمخشري:

1.3. البديع التقابلي:

يدرج كثير من الباحثين بنية التقابل ضمن البنى التكرارية باعتبار أن المعاني يستدعي بعضها بعضا إما استدعاء تشابه أو استدعاء تضاد²² والذهن يستحضر الضد على الفور قبل مجيء الطرف الآخر²²، وتعني وجود زوج أو أكثر من المعاني تجمع بينها علاقة

التخالف، أو التضاد كما في المناسبة والمطابقة والمقابلة، ويلجأ إليها المتكلم إجابة لرغبة المخاطب في الاستزادة للشرح و التفصيل، من أجل استمالته وإقناعه²³.

وبنية التطابق والتقابل من أكثر البنى البديعية توظيفا في المقامات، لم يستعملها الزمخشري لمجرد التوشية والتحسين، بل لأنها من الدواعي التي يتضح بها المعنى ويقوى، «والضد أوضح في الدلالة على المعنى من الشبيه»²⁴، فتطلع ثمرة الخطاب، ويتضاعف تأثيره في المتلقي، ومن ثم تتضاعف قوته الحجاجية. يقول الزمخشري: «وما العيش إلا ضنك ورغد. وأيهما قُضِيَ لإنسان. فقد وكل بإزالته مر الزمان، فذو اللب من جعل لذاته كأوصابه. وسوى بين حالي عرسه و مصابه. ولم يفصل بين طعني أزيه وصابه. فإذا اعتوزة النعيم والبؤس. لم يعتقب عليه التهلل والعُبوس. ذاك لأنه مُسَلَّمٌ لمجتلب القضا. عالم أن كل ذلك إلى انقضا»²⁵. يعرض المتكلم بالمخاطب الذي لم يفهم طبيعة الحياة، ويراهم مجرد مُتَع وشهوات، فلجأ إلى المطابقة مراعاة لحاجة المخاطب إلى التفصيل، وباعتبارها الآلية الأنسب لإفهامه، والكشف عن طبيعة الحياة التي لا تقوم إلا على التناقض، وهذه الحقيقة لا يمكن أن يفهمها المخاطب إلا بذكر الأضداد، فيصبح الضد إذن ضرورياً لتعريف المخاطب بحقيقة الحياة، فاللبيب هو من يحسن التعامل معها، ويلبس لكل حالة لبوسها، إذا مسه الخير شكر، وإذا عضه الشر صبر.

ويقول: «يا أبا القاسم ما ضرَّكَ لو أطعتَ ناهيَ النُّهى وإنْ كانَ نهيه أَمْرًا مِنَ الصَّابِ. وعَصَيْتَ أَمْرَ الهوى وإنْ كانَ أمرُه أعذبَ من ماءِ اللَّصَابِ»²⁶، تقوم العلاقة بين الدوال في هذا النص على التقابل الضدي بين ستة أزواج، يقوم الناتج الدلالي فيها على تمن من المخاطب اتباع العقل وإن كانت فيه الآلام، والنكوص عن الهوى وإن جلب اللذائذ، ولما كانت الدوال فيها ذوات طبيعة تكرارية في الخط الرأسي أو العمودي، حيث إن التكرار يتحقق بالنظر إلى عملية الحضور والغياب؛ فبمجرد ما تذكر التركيب الأول يتداعى لك الثاني، فهي إذن زيادة كمية معتبرة في الخطاب، والغرض منها كما يرى التداوليون هو توضيح الدلالة وتأكيد ما يذكر ما هو حاضر في ذهن المخاطب، ومعلوم لديه قبل الحلول في الخط الأفقي تثبيتاً للنصيحة في نفسه، ودفعاً لغفلته، وهذا حرص من المخاطب على تحقيق مبدأ الإفادة والإبلاغية التداوليين، فإذا أضفنا إلى هذا الجانب التحسيني الذي يوشى البنية بظواهر

صوتية كالتسجيع، والتجنيس، والالتزام، اشتد تأثير المقابلة في نفسه، وكان ذلك أدعى لاستمالاته واقتناعه .

ومن خلال هذا العرض نصل إلى أن الزمخشري يرجو بالمطابقة والمقابلة تحقيق مبادئ

تداولية هامة منها:

أ. إنجاح عملية التواصل وتحقيق مبدأ الإفهام والإفادة .

ب. التأثير في المخاطب لاستمالاته وإقناعه .

ج. دعوة المخاطب إلى المساهمة في إنتاج الخطاب، من خلال تمكين المخاطب من توقع البنية المخالفة، خاصة إذا علم أنها من أسس تفكيره.

ويمكن أن نضيف العكس إلى البنية التقابلية، وإن كان هناك باحثون يجعلونها ذات طبيعة مزدوجة تقابلية وتكرارية، لكن التقابل الشكلي أوضح في إنتاج العكس، إذ « هو أن يُقدم في الكلام جزء ثم يؤخر »²⁷، وهذا النوع من البديع استطاع أن يفرض وجوده في البديع التداولي بفضل طبيعته البنائية الخاصة، لأنه يُعَوِّل على كفاءة المخاطب وقدرته على الكشف عن الدلالة المتضمنة في الخطاب المبني على مبدأ المعاودة الضدية التي اقتضت تكرار ألفاظها، وإذا كانت حركة خط الدلالة تنمو تقدماً في معظم النواتج اللغوية، فإنَّ المتأمل في بنية العكس يؤكد وجود منعطف أو توقّف مؤقت تعدل فيها الدلالة عن خط سيرها، لتجعله خطأ مزدوجاً يعتمد على التقديم والتأخير؛ لأنَّ الذهن يتحرك فيها إلى الأمام، فيدفع الصياغة إلى متابعتها، ثم يرتدّ راجعاً فتلاحقه الصياغة أيضاً، وبين التقدم والتراجع تتوافق البنى السطحية، وتتخالف بنية العمق²⁸.

وحضور هذه البنية في المدونة قليل جداً اخترت منها: « وللهِ عبدٌ لم يطرق بابَ ملكٍ ولم يَطَأ عتبةً. ولم يلمحْ ببصره مرتبةً. ولم يعرفْ حسابهَ وَ لَا كَتَبَتَهُ. ولم يَصُفْ قَدَمَيْهِ إِلَّا بينَ يَدَيِ الملكِ الجَبَّارِ جابرٍ ما كَسَرَتْهُ الجَبَابِرَةُ. وكاسِرٍ ما جَبَرَتْهُ الأَكاسِرَةُ »²⁹.

في هذا الخطاب نهى المتكلم المخاطب أن يكون عبداً للجبارين، وأمره أن يكون عبداً لله وحده، القادر على جبر أحوال المظلومين، وقصم ظهور الجبارين. وتمثل بنية العكس حجة يستقوي بها المتكلم على مخاطبه لإقناعه بتوجيهه، ودلالة دائرية تحتاج إلى فاعلية المتلقي في تأويل الدلالة تأويلاً يتفق مع مقصدية المتكلم.

2.3. البديع التكراري:

ويضم أساليب بديعية تتقاطع في التكرار والتماثل، والمقصود بها تكرار صوت أو أكثر، قد يكون في آخر الفواصل كما في التسجيع، وقد يكثر التكرار الصوتي في كلمتين - ويكون كليا أو جزئيا - مختلفتي الدلالة كما في التجنيس واللزوم. وتعمل البنية التكرارية على إثراء المنظومة النصية للخطاب الأدبي، إذ يفرز تناغما وإيقاعا موسيقيا وتجاوبا دلاليا بين المتلقي والمتكلم بوساطة النص الحامل لتلك البنى.

ويهيمن البديع التكراري على فن المقامات خاصة، وهو في مقامات الزمخشري تكرار مكثف، يتجلى في أساليب عدة خاصة التجنيس، والتسجيع، واللزوم. هذه الأشكال الثلاثة تتضافر معا في تشكيل الوجه الصوتي والإيقاعي للمقامات بهدف حسن الإفادة، وإحداث الأثر في المخاطب، و«للكلام المسجع دور حجاجي؛ يحسن موقعه في الأذن، فيؤثر في النفس، ويسحر العقل، ويبلغ بالأثر مبلغه الأبعد»³⁰، وقد تعزز أساليب البديع حجاجية النص فيتعاظم أثره في المخاطب «فالمعنى يكون جميلا فتزداد قدرته على الفعل في المتلقي متى كان مقنعا»³¹.

يقول الزمخشري: يا أبا القاسم لقد صَحبت طويلا رجالات قومك. وكأنك رأيت خيالات في نومك ... أين جدك بعدما حَلَبَ أَشْطَرُ الزَّمان. وَجَمَعَ هُنَيْدَةُ نَصْرَ بْنَ دَهْمَانَ وَكُلَّ مَنْ نَفَسَ لَهُ وَعَمَّرَ. أَدْرَكَهُ سِنَانُ الْمَوْتِ قَدَمَرٍ. لا فصل إذا احتَضِر. بينه وبين من احتَضِر. سيان عند الموت شيخُ القوم وشرُّها. وشكلانِ عنده قَشْعَمُ الطَّيْرِ وفَرْخُها. لا يَنْخَطُّ مُحَدَّثًا لِيُعَرِّجَ على مُعَمَّر. ولا يَحْتَرِمُ مُحَدَّثًا فَيَحْتَرِمَ دُونَهُ الْمُعَمَّر. بل يَسُوقُهُمَا بَسَوطٍ واحدٍ إلى مَدَى. وَيَسْبِقُ بهما إلى قَصَبَةِ الرَّدَى. كأنك لم تتقلب في حَجْرِهِ تَقْلُبًا. ولم تتخذ منكبهُ مركبًا. ولا عَهِدْتَ على لَبَانِهِ تَلْعَب. ولا شَهِدْتَ أَمَامَهُ تَلْعَب³².

لما رأى المتكلم مخاطبه قد ركن إلى رجالات قومه، حتى أسوه ذكر ربه، وألهوه عن واجباته، أراد منه تعديلا في سلوكه وارعواء، فلجأ إلى تنويع وسائل التأثير والإقناع:

الأولى: حجة منطقية " وكل من نفس وعمر. أدركه سنان الموت فدمر ". " أين جدك؟ ".

الثانية: حجة الحجة، وهي حجة واقعية " أين جدك بعدما حلب أشطر الزمان. وجمع هنيذة نصر ابن دهمان.

الثالثة: تعزيز حجاجية النص بطاقة موسيقية وجمالية على مستوى الشكل ناشئة عن التسجيع، والتجنيس، واللزم، وهي من أدوات الإيقاع والموسيقى والجمال³³» والحجاج مقترن بالجمال يستحيل الفصل بينهما³³.

الرابعة: توظيف المخاطب لأساليب البديع التكراري (السجع، والجناس، واللزم) من أجل تشويق المخاطب إلى المعاني، والاستيلاء عليه وجزءه للقبول بالفكرة، والاقتناع بها. الخامسة: أن يدعو المخاطب المتلقي إلى المساهمة في إنتاج النص من خلال تمكينه من توقع الفواصل والمعاني قبل أن ترد على لسانه، وهي خطوة أخرى للإيقاع بالمتلقي، خاصة إذا علم هذا الأخير أن البديع التكراري من أسس تفكيره.

كما تضم البنية التكرارية المحسن البديعي المعروف بتأكيد المدح بما يشبه الدم، وتأکید الدم بما يشبه المدح، وهما بنيتان يجتمع فيهما التخالف السطحي والتوافق العميق، حيث يوهم المتكلم المتلقي بداية أن الصفة الثانية مخالفة للصفة الأولى، فإذا بها تفاجئه بانتمائها إلى الصفة الأولى المادحة أو الدائمة، فإذا هي مدح يعزز مدحا، أو ذم يعقب ذما، فينشأ بذلك التراكم المدحي أو التراكم الذمي.

ونلاحظ في إنتاجية البنية داخليا أنها تدخل منطقة الدليل العقلي؛ إذ إنَّ المتكلم يستدل على نفي صفة في الممدوح أو المذموم بإثبات صفة موافقة للصفة الأولى خلافا لما يوهم به السطح³⁴، وتوهم البنيتان بالربط المنعكس؛ حيث يكون مدح يعقبه أداة استثناء يوهم بإيراد ذم بعدها، لكن يأتي ما يؤكد المدح السابق عليها أو يكون ذم يعقبه أداة استثناء توهم بإيراد مدح بعدها، لكن يأتي ما يؤكد الذم السابق عليها³⁵، وتأکید المدح في هذا الضرب من وجهين:

الأول: هو مثل دعوى الشيء ببينة وبرهان، كأنه استدل على إثبات صفة أو نفى بتعليق نقيضها عنه.

الثاني: إثبات صفة مدح لموصوف تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له³⁶.

وورد من المدح المؤكد بما يشبه الذم في قول الزمخشري: «هو (القرآن) بحرٌ لحيٌّ لا

تَرَالُ

تَرْخَرُ لَجَجُهُ ... عَذْبُ فُرَاتٍ إِلَّا أَنَّهُ مُلِيٌّ بِكُلِّ لَوْلُؤَةٍ يَتِيَمَةٌ قَدَافٌ لِكُلِّ جَوْهَرَةٍ كَرِيَمَةٍ³⁷، إذا تلفظ المخاطب بـ"إلا" أوهم السامع وقبل النطق بما بعدها أن الآتي صفة ذم، لكنه جاء صفة مدح، فيزول توهم السامع بهذه المفاجأة، ويجد أن المتكلم خدعه فلم يذكر عيبا بل أكد المدح الأول في صورة توهم الذم، ومن هنا جاء التوكيد ما فيه من تراكم الأمداح في أبيه قالب، وأنقى منظر. وتأكيد المدح بمثابة دعوى أقيم عليها البرهان، إذ كأنه استدل على اتصاف القرآن بأحسن الصفات بتعليق وجود نقيضها.

ومن أمثلة ما يؤكد الذم بما يشبه المدح قول الزمخشري: «أَطَعْتَ الشَّيْطَانَ. وَكَلَّا وَلَا بُرْهَانَ. إِلَّا أَنَّكَ أَخَذْتَ الْعَاجِلَ بِمَا عَزَّ وَهَانَ. وَلَا مَعْذَرَةَ إِلَّا أَنَّكَ دُقْتَ طَعَمَ الْإِتْرَافِ فَاسْتَطَبَّتْهُ. وَدَعَاكَ دَاعِيَ الْإِسْرَافِ فَاسْتَجَبْتَهُ»³⁸. أثبت المتكلم للمخاطب صفة ذم وهي طاعة الشيطان، ثم أتبعها بما يوهم أنه سيذكر له صفة مدح، لكنه يفاجئه بما يروعه فيذكر له صفة ذم أخرى "أخذه العاجل بما عزَّ وهان"، وهي تأكيد للزجر التالي للصفة الأولى وبرهان على أن المخاطب لا حسنة له، واستدلال على أنه مطيع للشيطان بتعليق وجود نقيضها وهو طاعة الرحمن. أو أن المخاطب لم يجد له حسنة تذكر فملأ الفراغ بعد إلا بسيئة أخرى، وهذا من تمام الذم. فهذان إذن أسلوبان استدلاليان حجاجيان يوظفهما المتكلم من أجل التأثير

في المخاطب وإقناعه بوجوب تعديل سلوكه.

3.3. البديع الإطنابي:

في هذه البنية يستطيل المعنى إلى إضافات وزيادات لفظية ومعنوية يتطلّبها المقام الخطابي إجابة لحاجة المتلقي إلى الشرح والإيضاح، وتحقيق فائدة الخطاب، وحمله على الإقتناع بما يسوقه من حجج وأدلة. وحضور هذه البنية في وعظيات الزمخشري مكثف تلبية لحاجة المخاطب إليها.

وتتضمن هذه البنية ما سماه البديعيون المذهب الكلامي: وقد حدّد القزويني³⁹ بأنه إيراد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام⁴⁰، وهو تعليقات عقلية أو منطقية، وأساليب استدلالية حجاجية يوظفها المتكلم لإقناع خصمه بالحجة والبرهان⁴⁰. ومما أراد المخاطب إثباته على طريقة أهل الكلام قوله: «عَلَى أَنَّ الْقَدَرَ يُعْطِي الْبَصَرَ وَالْبَصِيرَةَ. وَتُظْلَمُ

مَعَهُ الْآرَاءُ الْمُسْتَنِيرَةِ. وَإِلَّا فَلِمَ انْتَضَمَ السَّهْمُ قَلْبَ تَابُطٍ شَرًّا. وَكَانَ الَّذِي رَمَاهُ غُلَامًا غِرًّا⁴¹.
ادّعى المخاطب أن القدر يعمي البصر و البصيرة، ولما تبين له أنّ المخاطب يردّ هذه الدعوى ولا يسلم بها، لجأ إلى برهان اجتلبه من الواقع، ومن معارف المخاطب نفسه: غلام غرّ يقدر على البطل المغوار زعيم الصعاليك تأبط شرا ويقتله، فما قدر عليه إلا قضاء وقدرًا.
ومثله قول الزمخشري: لَوْ كُنْتُ كَمَا تَدَّعِي مِنْ أَهْلِ اللَّبِّ وَالْحَجَى. لَأَتَيْتَ بِمَا هُوَ أُخْرَى بِكَ وَأَحْجَى⁴².

- يفتخر المخاطب بنفسه، ويدّعي أنه من أولي الألباب .

- يعارضه المخاطب في هذا الادعاء .

- الحجة العقلية لإبطال دعوى المخاطب: أفعالك تكذب ادعاءك.

ويعد الإجمال في بعض السياقات من ضروب الإخلال بالمعنى، وأحد الأسباب التي تعطل عملية التواصل، وتخل بمبدأ الإفادة، لذلك حرص البلاغيون على تفصيل المعنى، وتقسيمه من أجل تبليغه المخاطب مجلوا مكشوفًا، وقد عرفوا التقسيم بأنه⁴³ «ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه مع التعيين»⁴³، وتتجلى علاقة التقسيم أو التفصيل هذه كثيرا على السطح، و«يكون بأدوات لغوية تارة بلفظة إما، وتارة بلفظة بين، وتارة بلفظة منهم، وتارة يذكر العدد المراد أولا بالذكر ثم يقسم»⁴⁴، أو يكون بدونها، ويأتي المفصل على ترتيب مجمله، وقد لا يأتي كذلك، ويقسم المتكلم لإقناع خصمه بالحجة والبرهان.

ومن أمثلة ما قسم الزمخشري «يا أبا القاسم إنَّ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ. رَكَّبَ فِيكَ عَقْلَكَ وَهَوَاكَ. وَهَمَّا فِي سُبُلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ذَلِيلَاكَ. وَفِي مَرَاحِلِ الرُّشْدِ وَالْغَيِّ نَزِيلَاكَ. أَحَدُهُمَا بَصِيرٌ عَالَمٌ يَسْلُكُ بِكَ فِي الْبُرْدَيْنِ الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ وَيَرُدُّ بِكَ زُرْقَ الْمَنَاهِلِ. وَالْآخَرُ أَعْمَى جَاهِلٌ يَخْبِطُ بِكَ فِي بَيْضَةِ الْهَاجِرَةِ الْبَيْدَ ذَاتَ الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَاهِلِ»⁴⁵. يخبر المتكلم المخاطب بأنَّ الله ركب فيه العقل والهوى، ثم لما تبين له أنَّ الإجمال يحول دون مبدأ الإفادة، والمقام مقام تفصيل راح يُقسم المعنى على ترتيب مجمله، بداه بغير أداة، وأنهاه بها أي: التقسيم بـ "أحدهما" و"الآخر" لغاية توضيحه، كما يوحي المخاطب بتقسيم الفكرة بأنه قد أحاط بالفكرة تمام الإحاطة، فصار قادرا على تفصيلها، مما يضطر المتلقي إلى القبول بالمعنى المجمل. كما ينشط ذهنه، ويشوقه إلى التفاصيل خاصة عندما يقسم بأدوات توحى بأنَّ هناك أقساما تتناسل من الفكرة، كما في الخطاب: وَجَدْتَ عَمَلَكُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَغْبَرِ. وَسَاعَةَ

الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، أَتَبَعَ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ. وَالزَّمَ مِنْ شَعْرَاتِ قِصِّكَ. يَفِدُ مَعَكَ أَيْنَمَا تَفِدُ. وَيَرِدُ مَعَكَ أَيْنَمَا تَرِدُ. ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَدُلَّكَ عَلَى فَوْزٍ مُبِينٍ. وَإِمَّا أَنْ يَدْعُكَ عَلَى عَذَابٍ مُهِينٍ⁴⁶. بمجرد ما يذكر المتكلم الأداة "إما" يتشوق المتلقي إلى ما بعدها، وربما تحفّز إلى اكتشافها، فإذا وافق المتوقع ما عند المخاطب كان ذلك مساهمة منه في إنتاج الفكرة فلا يستطيع أن يردها، وذلك من دواعي الاقتناع بها.

و تشمل هذه البنية كذلك الإيضاح، حيث يوظفه المتكلم اضطرابا لإزالة لبس وتوضيح غموض يكتنف الكلام، ولهذا قيل في تحديده⁴⁷ "هو أن يذكر المتكلم كلاما في ظاهره لبس فلا يفهم من أول الكلام، ثم يوضحه في بقية كلامه"⁴⁷، ويلاحظ في إنتاجية هذه البنية أنها تعتمد على استحضار المتلقي إلى رحاب الصياغة، وإنشاء علاقة جدلية بينهما، إذ إن هذه الإنتاجية تأتي على مرحلتين، المرحلة الأولى هي الإبهام، والمرحلة الثانية هي الإيضاح، وكلاهما يتعلق بعملية الإدراك المصاحبة لعملية التلقي التي تستقبل المرحلة الأولى، فيتولد عنها فاعلية نفسية هي التشوق إلى إدراك المهم في صورة واضحة، فإذا ارتوى هذا التشوق تمكن المعنى، واكتملت لذة المعرفة⁴⁸، ومما هو معلوم أن من يريد إقناع أحد بمعنى من المعاني، يجب أن يشرحه له، ويوضحه توضيحا يغري بقبوله والتصديق به⁴⁹، أو التعبير عنه بطريقة تقرب بعيدة، وتصوره في نفس المتلقي أبين تصوير وأوضحه. ومما احتيج إلى توضيح قول الزمخشري: "يا أبا القاسم إنك لفي مَوْقِفٍ صَغْبٍ: بَيْنَ حَوْبَةٍ رَكِبْتَهَا وَبَيْنَ تَوْبَةٍ ثَبَّتَهَا"⁵⁰. لما ذكر المخاطب الكلام "موقف صعب" بان له أن الكلام يلفه لبس و يكتنفه غموض يخل بمبدأ الإفادة، ويعيق عملية التواصل، هذا اللبس و الإبهام حرّض المتلقي وشوّقه إلى انتظار الإيضاح قبل أن يأتيه، فإذا جاءه بعد الإبهام تقرر المعنى في ذهنه، و تمكن في نفسه، وكذلك إذا ذكر المخاطب الموقف الأول "بين حوبة ركبته" نداعى الموقف الثاني للمخاطب "بين توبة تبتها" وتوقعه قبل أن يرد إليه فيلنّذ به، ويستولي عليه ويتأثر به أشد تأثير، فإن المعنى إذا أتى المخاطب بعد تعب، كان أعزّ من المنساق بلا نصب، يضاف هذا إلى الموسيقى الشكلية الناشئة عن السجع والترصيع فعندئذ تتضاعف قيمته الحجاجية، وذلك أدعى لأن يقتنع المخاطب به فيغير سلوكه، ويثوب إلى رشده.

وتضم البنية كذلك الاقتباس والتضمين، وهما عبارة عن استعارات نصية أو دلالية،

يستدعيها المبدع من مخزون محفوظ يناسب لحظة الإبداع، فإن أي نص حسب رولان بارث

(R. Barthes) هو بنية مفتوحة، وفضاء تتلاقى فيه نصوص عدة تتفاعل وتتداخل، لتشكل نسيجاً من الاقتباسات والإحالات والأصداء من نصوص سابقة أو معاصرة تخترقه بكامله⁵¹.

وتحمل النصوص المقتبسة قيماً تداولية حجاجية يستبقي بها المتكلم ردود أفعال غير متوقعة من قبل المخاطب المخالف، «فيرسل إليه هذه النصوص حججاً مانعة من أن يشك في الحكم أو يفكر في مخالفته، وستضمن له إذعانه واستسلامه، ولا سيما أن هذه النصوص مما لا يستطيع رده أو إنكاره»⁵².

ويتميز الخطاب الوعظي عادة بكثافة اقتباسيه، لأن الواعظ أحوج ما يكون إليها ليستقوي بها على المخاطب ليغالبه ويقنعه. بالإضافة إلى هذا فإنها يؤدي وظائف تداولية أخرى بما تقدمه من إشارات شخصية عن المتكلم ومكانته ومعجمه ومنظومته المعرفية، فتشير إلى أن الزمخشري قد خبر الحياة، وأنه قامة علمية ودينية في مجتمعه مكنته من التوجه إلى غيره ناصحاً أميناً، كما تحيل إلى قيمة النص القرآني والحديث النبوي والمأثور من القول في النفوس.

أ. الاقتباس من القرآن الكريم:

تتجلى تداولية الاقتباس في عملية التوظيف الفني لنصوص غائبة من القرآن أو من الحديث النبوي لا على أنها منه⁵³، ودون اصطناع لعلامات التنصيص، ولا تكاد تخلو مقامة من المقامات من المقتبس القرآني الذي يستدعيه الزمخشري بحمولته البنيوية أو الدلالية أو التداولية، دون تغيير أحياناً، وفي كثير منها يتصرف في جانب منه لأسباب تتصل بالمقام والموقف الاتصالي، يقول الزمخشري: «من حمل العلم والأدب لمثل هذه الخمار. فقد حمل منهُما أثقالاً على ظهرِ حمارٍ»⁵⁴، اقتبس المتكلم هذه الحمولة الدلالية من قول الله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِمَثَلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»⁵⁵، فشبّه حال المخاطب بكتسب العلم والأدب لغاية الاسترزاق والزلفى إلى الخلفاء بحال اليهود الذين أعطوا التوراة فكفروا بها، وحرّفوها ولم ينتفعوا بها أو ينفعوا، ولا يدرون قيمة ما حملوا، فنالهم من الذم والتقريع ما

نالهم، فهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، ولا يدري قيمة ما يحمل. ولجأ المتكلم إلى النص القرآني يقتبس منه ألفاظه ومعانيه، يستدل بها على صحة رأيه «الاعتباس استدلال ضمني»⁵⁶، ويستقوي بها عليه، لغاية التأثير عليه، وإقناعه بوجوب تغيير نظرته إلى العلم والأدب، وأنهما لا يطلبان لغاية كهذه.

وقد يستحضر الزمخشري النص المقدس بحمولته النبوية والدلالية والتداولية في العظة كقوله: «يا أبا القاسم بسأت نفسك بالشهوات فافطمها عن هذا البسوء. ولا تطعها إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ»⁵⁷. اقتبس من قوله تعالى: «وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»⁵⁸ يدعو المخاطب مخاطبه إلى أن يفطم نفسه التي بشتت من الشهوات، ولكي يقنعه برر نهيه بالاعتباس من النص المقدس- بنية ودلالة- يستدل به على صحة نهيه، وكأنه يقول له إنه نبي الله تعالى، باعتباره معرفة مشتركة مع مخاطبه.

ب. الاقتباس من الحديث النبوي:

يقول الزمخشري: «يا أبا القاسم مآلك لا ترفض هذه الفانية رفضاً. ولا تنفض يديك عن طلبها نفضاً. ألم تر كيف أبغضها الله وأبغضها أنبيأؤه. ومقتها ومقتها أوليأؤه. ولولا استيجابها أن تكون مرفوضة. لو زنت عند الله جناح بغوضة»⁵⁹. ينطلق المتكلم في إقناع المخاطب بصحة الحكم وهو وجوب تطبيق الدنيا والزهد فيها مستندا على نص مقدس يمثل معرفة مشتركة بينه وبين مخاطب لا يشك في صحته، وهو نص مقتبس من قول رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا ترزق عند الله جناح بغوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»، وتضمنين المتكلم خطابه الحديث يمثل حجة واستدلالا ضمنيا على قوة التوجيه وصحته. وتراكت أدوات التأثير والإقناع في هذا النص منها:

- الفعل الكلامي غير المباشر الذي يتضمن معنى اللوم: مالك لا ترفض هذه الفانية؟ مالك لا تنفض يديك؟ والتقرير: ألم تر كيف أبغضها الله وأبغضها أنبيأؤه؟
- حجة السلطة: بغض الله والأنبياء والأولياء للدنيا ومقتهم لها.
- الفعل الكلامي التقريري كما هو عند سيرل لإيقاظ المخاطب من غفلته، وتثبيت النصيحة في نفسه عن طريق التأكيد بالمفعول المطلق "رفضاً" و"نفضاً" والتكرار "أبغضها" و"مقتها".
- الاستدلال الضمني بالاقتباس من الحديث النبوي الشريف.

- الموسيقى الشكلية الناشئة عن التسجيع، واللزوم، والتجنيس.

ويقول: «فَأَمَّا الْقَانِعُ فَقَدْ قَدَّرَ مَبْلَغَ حَاجَتِهِ وَ بَيَّنَّهُ. وَمَثَّلَ مَقْدَارَ إِزْبِهِ وَعَيْنُهُ. وَذَلِكَ رَثُّ يُوَارِي سَوَاتِهِ. وَغَثُّ يُطْفِئُ سَوْرَتَهُ. فَإِذَا ظَفِرَ بِذَلِكَ فَقَدْ حَازَ النَّعِيمَ بِحَدَافِيرِهِ»⁶⁰، قُدِّمَ لهذا الاقتباس سياق نصي تتفاعل كلماته مع معنى النص المقتبس من قول الرسول ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ أَمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا»⁶¹. يوجه المتكلم المخاطب إلى القناعة وخشونة العيش إذا أراد النعيم الكامل، وأن هذا القدر من الحياة مقدر بميزان النبوة. لذلك اقتبس من الحديث النبوي، وذلك توجيه منه إلى ملاحظة أوجه التشابه والاختلاف بين النصين المتحاورين، فإذا بان له أنهما متشابهان عد ذلك ضرباً من الاستدلال الضمني وحجة، عليه أن يذعن لها، وهذه سبيل المتكلم إلى إقناع المخاطب بهذه النظرة إلى النعيم.

ج. التضمين:

وأما تضمين النص الأدبي خاصة المثل و الحكمة فإنه يحيل إلى المقولات المتفق عليها في المنظومة الثقافية والاجتماعية، والتي صارت تمثل موجبات للسلوك الإنساني العام، ويحقق بها المتكلم هيمنة ما على مخاطبه حين استحضارها في حديثه، حتى غدت قوانين حياة، وتمثل مرجعيتها نماذج تتكرر على مر التاريخ يُطمأن إليها، وبالتالي تكون أدوات فعالة يضغط بها المتكلم على مخاطبه، ويستقوي بها عليه. يقول الزمخشري: «وَكُنْ فِي تَقْوَاكَ كَسَالِكِ طَرِيقِ سَائِلِكِ لَا بَدَّ لَهُ أَنْ يَتَوَقَّى وَيَتَحَفَّظَ، وَيَأْخُذَ حِذْرَهُ وَيَتَّقِظَ»⁶²، حفر المتكلم في الحافظة الثقافية للمخاطب ليقتبس منها ألفاظاً ومعاني تمثل معرفة مشتركة بينهما، فعثر على خطاب لابن المعتز:

خَلِّ الدُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا فَهَوَ التَّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِ قَوْقُ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجَبَالَ مِنَ الْحَصَى

أعاد المخاطب صياغة هذا النص التراثي ليكون للمخاطب تبصرة وذكرى تعززها معارف سابقة لا يمكن ردّها، وهذا يضيف إلى طاقتها الحجاجية طاقة تؤثر في المخاطب، وتضغط عليه ليقنع بها، ومن ثم العمل بتوجيهات المتكلم. يقول الزمخشري: «لَا يَكُونَنَّ مَوْعِدُكَ مِثْلَ لَمْعِ الْبُرُوقِ بِالذَّنْبِ. وَلَا مُشَبِّهًا بِلَمْعِ الْبُرُوقِ الْخُلْبِ»⁶³، لكي يقنع المتكلم المخاطب

بوجوب صدق الوعد وعدم إخلافه ضمّن خطابه مثلاً يتداوله العرب "دُعني من تَكْذَابِكَ وَتَأْتَاكَ شَوْلَانُ الْبُرُوقِ" فما أقبح وعدا يعطي أملاً عريضاً ثم يخلف! فالواعد الكاذب بمنزلة الناقة التي تشول بذنبها، توهم صاحبها أنها لاقح فيفرح، ثم يكتشف حقيقتها فيكلح. وقد ضمن المخاطب خطابه هذا المثل زيادة في التشنيع بالمخاطب من أجل التأثير عليه، وإقناعه بوجوب تعديل سلوكه.

4. خاتمة:

مقامات الزمخشري كغيرها من المقامات لا تخلو من كثافة بديعية، ولكنها تختلف عنها

في كونها خطاباً تربوياً جاداً، فلم يصطنع الزمخشري مقولات البديع للغاية التعليمية والتحسينية فحسب، وإنما لتحقيق غايات ومقاصد أسمى، وهي أداء وظائف تواصلية وإبلاغية وإفادة أبعاد تداولية وإنجاز مقاصد حجاجية محاولة التأثير على المخاطب وإقناعه بتوجيهاته، قد خلصت الدراسة إلى النتائج:

ويرجو الزمخشري بالبديع التقابلي طلوع ثمرة الخطاب، وتحقيق غايته التواصلية والإبلاغية لدورهما في تمييز العلامات وتوضيحها، وإفساح المجال للمخاطب للمساهمة في إنتاج الخطاب من خلال توقع المعاني قبل أن تأتيه، خاصة عندما يعلم أن البنية التقابلية من أسس تفكيره.

وتسهم الأشكال البديعية الصوتية التكرارية بطاقتها التحسينية والجمالية، وخاصة عندما تعزز حججاً سابقة بقسط كبير في حجاجية الخطاب؛ فتؤثر في المخاطب وتستميله، وتدفعه إلى الاقتناع بالفكرة والانصياع للتوجيه فعلاً أو تركاً " فلا حجاج دون موسيقى أو جمال".

عندما يسعى الزمخشري إلى تقرير المعنى وتمكينه في نفس المخاطب، يريه إياه في صورتَي الإيهام ثم الإيضاح، كما في التقسيم والإيضاح.

لما كانت خطابات الزمخشري وعظيه بالأساس فهي محوجة إلى الاقتباسات باعتبارها استدلالات ضمنية يوظفها المتكلم في خطابه لإقناع المتلقي بقيمة توجهه وصحته.

وعموماً فإن توظيف علم البديع في المقامات يلعب دوراً يزدوج بين الوظيفتين التحسينية والتداولية الحجاجية.

5. الهوامش:

- 1 - ينظر جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، شبكة الألوكة، ط 1، 2015، ص 7
- 2 - ينظر طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط 2، الدار البيضاء، 1993 ص 244.
- 3 - محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص 14.
- 4 - المرجع نفسه، ص 33
- 5 - المرجع نفسه، ص 34
- 6 - محمد بن منظور، لسان العرب (مادة: ب د ع)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.
- 7 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مؤسسة المختار، ط 1، القاهرة، 1999، ص 288.
- 8 - ينظر عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص 11، 12
- 9 - عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، دار المسيرة، ط 3، بيروت، 1983، ص 58.
- 10 - عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 8.
- 11 - يحيى العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2002، ج 3، ص 347
- 12 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مطبعة المدني، ط 1، القاهرة، 1991، ص 14.
- 13 - المرجع نفسه، ص 11.
- 14 - أمين الخولي، فن القول، دار الفكر العربي، ص 184.
- 15 - ينظر صلاح حسن حاوي، وعلي حسين الحساني، البلاغة والمجتمع في مشاريع التحديث البلاغي، مجلة ص والقرآن ذي الذكر، مؤسسة وارث الأنبياء الثقافية (البصرة)، عدد 20، 2018، ص 327.
- 16 - ينظر ابن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد، ط 1، بيروت، 2004، ص 498.
- 17 - صابر الحباشة، التداولية والحجاج، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، 2008، ص 50.
- 18 - المرجع نفسه، ص 51.
- 19 - خالد كاظم الحميداوي، أساليب البديع في نهج البلاغة، دكتوراه، جامعة الكوفة، العراق، 2011، ص 146
- 20 - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، ط 1، الأردن، 2008، ص 127
- 21 - المرجع نفسه، ص 120.
- 22 - محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1، بيروت، لبنان، 1997، ص 355
- 23 - ينظر خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مقاربة بين التداولية والشعر، بيت الحكمة، ط 1، الجزائر، 2012، ص 106
- 24 - عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 91
- 25 - محمود بن عمر الزمخشري، مقامات الزمخشري، دار الكتب العلمية، ط 3، بيروت، لبنان، 2004، ص 51.

- 26 - المرجع نفسه، ص 203 .
- 27 - القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 299 .
- 28 - محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 378 .
- 29 - الزمخشري، مقامات الزمخشري: ص 88.
- 30 - ينظر محمود المراغي، علم البديع، دارالمعرفة الجامعية، مصر، 1999، ص129.
- 31 - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 122 .
- 32 - الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص 184 .
- 33 - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 122 .
- 34 - محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 389، 390 .
- 35 - جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998
- ص154
- 36 - عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 165 .
- 37 - الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص 187 .
- 38 - المرجع نفسه، ص 157.
- 39 - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 310
- 40 - رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، عالم الفكر، مجلد 40، عدد2، 2011، ص76
- 41 - محمود الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص 275 .
- 42 - المرجع نفسه، ص 21 .
- 43 - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص303 .
- 44 - ابن الأثير، المثل السائر، دارنهضة مصر، القاهرة، 1962، ج 3، ص 167
- 45 - الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص194.
- 46 - المرجع نفسه، ص116.
- 47 - صفي الدين الحلي، شرح الكافية البديعية، دارصادر، ط2، بيروت، 1992، ص 21
- 48 - بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح، عيسى الحلبي، القاهرة، 1937، ج3، ص 210، 211
- 49 - ينظر جابر عصفور، الصورة الفنية، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، 1992، ص 232، 233.
- 50 - الزمخشري، مقامات الزمخشري: ص105.
- 51 - ينظر رولان بارت، درس السيميولوجيا، دارتوبقال للنشر، ط2، الدار البيضاء، 1986، ص 63
- 52 - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص134.
- 53 - الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة، ص350
- 54 - الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص87.
- 55 - سورة الجمعة: الآية 5

- 56 ينظر خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية ، ص 126
- 57 - الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص 97 .
- 58 - سورة يوسف: الآية 53.
59. - الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص 33.
- 60 - المرجع نفسه، ص 77.
- 61 - يحي النوي ، رياض الصالحين ، دار الكتاب العربي ، بيروت، لبنان. ص 230
- 62 - الزمخشري، مقامات الزمخشري، ص 197.
- 63 - المرجع نفسه، ص 216.

*** **